مشاهدات وملاحظات

الفلاح المصرى والفلاح الأوربى

بقلم الاقتصادى البارع الاستاذ عبد الحكيم الياس نصير المحامى

أسرة الفلاح المصرى لها طابع خاص فى معيشتها . ولها عادات فى ربط صلات أفرادها ، وأنا فلاح ابن فلاح لا فضل لى ولا سبق فى تبيان ما عليه فلاحنا ، ولكن نروم أن نوازن بين حال فلاح أوربا وحال فلاحنا ، وذلك بمناسبة انجاه النهضة المصرية نحو اصلاح القرى وإيصال الثقافة العصرية إلى بنيها وبناتها .

فى قرية فرنسية

والآن فلنقصد إلى قرية من قرى فرنسا ؛ ولا يكلفك الوصول إليها عناء أو مشقة ، فهناك شبكة من المواصلات بالسكك الحديدية وبالطرق الزراعية الممهدة المرصوفة ، والقطار والعبارة والعجلة جميعها فى خدمتك بكل قرية ، فاذا انتهت بالقرية شهدت القوم يأتزرون ثياب الريف الفضفاضة ، هناك نساء فى خفر وحياء ، وعمل دائب يشترك فيه أعضاء الأسرة جميعاً فاذا أصبح الصباح نهضت الفلاحة تعد الطعام للأسرة من لبن وقهوة وبطاطس وخبز وزبدة ، ويتناول الكل طعام الصباح فى وقت واحد وعلى مائدة واحدة ، ثم يذهب كل إلى عمله فالرجل إلى حقله ، والولد إلى عمله ، والبنت إلى مرتزقها الشريف ، والزوجة ترعى مملكتها ، وكل شىء بنظام ، فالبقر مزاود لا تجاور المساكن ، ولكنها غير بعيدة منها ، والدجاج أكواخ جدرانها من شباك السلك وأرضها تكنس وترش بالماء كل يوم ، ويبذل للدواجن من العناية الصحية بالغذاء والماء والتهوية مالو بذل بعضه فى العناية بأبناء الفلاحين المصريين لزخر الريف بالأصحاء الأقوياء الخالين من العاهات والأمراض .

وأذكر أن جميع القرى الفرنسية بها منابع للماء النقى القراح . أما أطفال الأسرة فأن الحكومة المحلية تسهر عليهم وترعاهم ، وما على الأم إلا أن تودع أطفالها فى روضة

الأطفال الملحقة بمكاتب القرية ، وهناك يجد الأطفال معلمة بل أما شفيقة ترعاهم وتحنو عليهم وتغذيهم إذا جاعوا ، وتكفكف دموعهم إذا بكوا ، وتلقنهم مبادىء التربية والتعليم ومحبة الله ومحبة فرنسا ومحبة المدرسة . فأذا فرغت الأم من عمل اليوم سعت إلى أطفالها لتعود بهم إلى دراهم قانين كاسبين .

ومما هو حري بالذكر أن نظام القرى الفرنسية يجعل العقبات أمام المنتجين ممهدة ، فالمحصول إذا نضج يسهل تصريفه جملة أو قطعا وفق مصلحة الفلاح ولا تقفل في وجهه المصارف قط ، والأسعار واحدة في جميع القرى لمحاصلات المتشابهة ، والفلاح أمامه أسواق المدن لتصريف ثمراته بالقطعة ، وأمامه شركات التعاون وشركات الغذاء لابتياع منتجاته جملة ، وبأسعار علنية وبمقياس مضبوط ووزن لا يطفف كيله . فلماذا لا تسعد أسرة الفلاح الفرنسي وهذه حياتها المثلى ؟ ولماذا لا تسعد فرنسا حكومة وشعبا بسعادة منتجيها ؟

في قرية مصرية

الآن نحن في قرية مصرية ، وفي مصر تختصر السكك الحديدية بالمدن دون القرى ، فلنركب سيارة ، ولكن الطرق الزراعية مملوءة بالحصباء وأكثرها غير ممهد ، بل والطرق الزراعية الرئيسية عندنا تلاصق قنوات الماء فتهبط سريعا بضغط المرور في معظم العام ، وما في كل مرة تسلم السيارة ، لهذا كانت أعمار السيارات في القرى قصيرة وجدتها لا تدوم أكثر من مرحلة ، الآن نحن على أول دروب القرية ، فليهبط الركب حتى يعالج السائق إصلاح السيارة في فوهة الدرب أو الحفارة ، والقرى المصرية محرومة من نعمة الطرق والشوارع الصالحة لمرور السيارات والمركبات ، وحسب ابن آدم أن يمر على دابة . أما حفر الجمل ووقوعه فيما حمل في أزقة الزيف فحادث مألوف كل يوم .

الآن نحن على عتبة دار الفلاح فأذا قصدت الدخول فالغالب أنك تهبط عن مستوى الطريق ولا نحاول وصف داخل منزل الفلاح ولكنا نصف حياة أفراد أسرته ، فأول المبكرين في الاستيقاظ الزوجة ، حيث تحمل جرتها وتنشط إلى النهر أو القناة مرة أو مرات وفق الحاجة . ثم يستيقظ الرجل ليكرع أقداح القهوة السادة ويحمل فأسه ويقصد حقله وكل ذلك قبل شروق الشمس ، أما أولاده فأذا طلعت الشمس طلوا بتاوا مقددا في خرقة ، واقتادوا الجاموس والماشية إلى المرعى ، فأذا كان الظهر أعدت المرأة وعاء به عصيدة أو جبن وبصل ومخلل أو خضار من مخلفات العشاء ، فأذا أقبل الليل التف أفراد الأسرة حول (طبلية) ليأكلوا مما طبخة بالعسل أو الدسم ، وطالما تتخلف الزوجة عن تناول

الطعام حتى تأمن شبع الزوج والعيال وحسبها بعد ذلك لقيمات أوقنات تفضل من بعلها وفلذاتها .

ها هى الماشية عطشى ، فليبحث لها عن ماء رائق من عين أو ساقية أو (طلمبة) ، وها أفراد الأسرة عطاش فليشربوا من ماء النبع والقنوات مزيجا من طين وقذر وجراثيم وماء ، وها هى الطير والدجاج وسائر الدواجن فى عقر الكوخ وأمامها قصعة أو صحاف للماء الآسن شرابا لها ، والقذر والبعوض والفاش نصف الغذاء .

وهاهم أفراد الأسرة وحيوانهم وطيرهم بين أربعة جدران طوال الليل .

مطلع الإصلاح

المدرسة الإلزامية ستطلب أبناء هذه الأسرة وبناتها منذ الحول السابع . فهل هم أصحاء البصر والحواس أقوياء البنية . وهل غذاؤهم موفور فى الدار أو فى المدرسة ؟ وهل يدخل جوفهم ماء يروهم ويحييهم أم أدواء تضنيهم وتمتص دمهم وتذهب بحيهم وتلوى قصدهم ؟ رب هب لقرى مصر إصلاحا عميا وتداركا عاجلا ، رب لقد وهبت مصر أزخر النعم فعلام سيرها إلى الإصلاح وئيداً وخطاها إلى الاستثمار متثاقلا

رب ما هذا التفكك ؟ ما هذا التواكل وسائر الأمم تسير إلى الأمام ؟ !

رب هب قرانا مصلحين يعملون لله والوطن والسلام

عبد الفتاح الياس نصير المحامى

التهذيب الدينى ضرورى جدا فى مدارس الإناث . لأنه أقوى ضمان لسعادة الزوجين . ينبغى أن يكون تعليم النساء دينيا لا عقليا لأن ضعف المرأة وتزعزعها فى آرائها . ومركزها فى الهيئة الاجتماعية وحاجتها المستمرة إلى سند تستند إليه لدى الكوارث وشعورها بالحاجة إلى من يغفر لها سيئاتها ويقبل توبتها كل ذلك يستلزم الاعتقاد فى دين من الأديان

* * *

إننى أعلم أنه ليس لى صديق مخلص فكل الناس أصحابى مادام الحظ يخدمنى

* * *

أتعلم ماذا يكون أصعب على الحر من انقلاب الأيام ومعاكسة الدهر ، إن دناءة الرجال ونكرانهم للجميل أشد على النفس من مصائب الزمان . (نابليون)